أبو الحسن علي الحسني الندوي

قصص من التاريخ الإسلامي

للأطفال

قام بالنشر و التوزيع
رابطة الأدب الاسلامى العالمية
المقر الرئيسى ندوة العلماء لكنئو (الهند)

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

اهتم بالطبع
عتيق الرحمن الطيبي

المطبعة الندوية
مؤسسة الصحافة و النشر
ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)



بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين سيدنا محمد و آله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أما بعد !

فقد اتفق علماء التربية و علماء النفس على أن الحكايات الخفيفة الشائقة ، الموجهة الهادفة ، من أقوى وسائل التربية و الصياغة الخلقية و المبدئية ، و الدينية و الايمانية ، إذا كانت متصلة بأقطاب الايمان و اليقين، و الديانات والرسالات .

و إذا كانت هذه القصص و الحكايات على مستوى عقول الأحداث والأطفال ، وفي اللغة التي يفهمونها بسهولة ، ويسيغونها و يتذوقونها ، كانت مدرسة للأطفال يتعلمون فيها المبادىء

و الأخلاق الفاضلة ، و الدوافع النبيلة ، و المشاعر الكريمة الرقيقة ، من غير أن تثقل عليهم ، و من غير سآمة و ملل .

و لا أبلغ ولا أصدق من قول الله تعالى فى كتابه العزيز :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب (١) » .

و يقول مخاطباً لنبيه صلى الله عليه و آله وسلم « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (٢) » .

و يقول فى مفتتح سورة يوسف : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن و إن كنت من قبله لمن الغافلين (٣) » .

لذلك عنيت أكثر اللغات و الآداب ، و الديانات ، و البيئات ، و المعنيون بتربية الأطفال ، و إنشاء الجيل الجديد على الأخلاق الفاضلة ، و خلال المروءة ، والفتوة ، و الايثار

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٦ .

(٣) سورة يوسف الآية ٣ .

و التضحية ، والرجولة و البطولة ، بجمع حكايات شائقة مثيرة
تلائم سن الأطفال ، و عقليتهم و مدى قدرتهم على الوعى
و التذوق (١) حتى تكونت من ذلك مكتبة زاخرة فى كل
لغة حية راقية ، وفى كل بيئة عاقلة واعية، تعنى بتربية الأطفال ،
و إنشاء الناشئة والجيل الجديد على حب أهدافها ومثلها ، و قيمها
التى تحتاج إليها وتغار عليها ، قلما تستثنى من ذلك لغة من لغات
العالم المتمدن ، و شعب من الشعوب العاقلة المثقفة .

و الناشئة الإسلامية و الأطفال المسلمون أحوج من كل
ناشئة و جيل فى سن الحداثة ، إلى قصص و حكايات تغرس
فيهم حب الخير و الفضيلة ، و البطولة و التضحية ، و الجهاد
و الشهادة فى سبيل الله ، و إيثار الآخرة على الدنيا ، والعزوف
عن سفاسف الأمور و فضول الحياة ، والحب لله و للرسول ،
و لأصحابه و أتباعه ، و الذين بذلوا نفسهم و نفيسهم فى سبيل

---

(١) يستوى فى ذلك الصغار فى السن والبدائيون فى دراسة
لغة من اللغات .

الله ، و حموا الدين ، و دافعوا عن المسلمين ، لأن سعادة الدنيا و فلاح البشر يتوقف على نشوئهم النشوء الصالح ، و تضلعهم بروح الدعوة إلى الله ، و الكفاح فى سبيل الله ، و التحلى بالحياة المثالية النموذجية .

والتاريخ الإسلامى من أغنى الثروات التاريخية والمكتبات العالمية ، فى روائع إيمانية و خلقية ، و مثل إنسانية رفيعة ، باعثة على الهمم العالية ، و الاتجاهات و المطامح الخيرة النبيلة ، و كتب التاريخ الموثوق بها مليئة طافحة بمثل هذه الحكايات و القصص ، و المثل و النماذج ، و لكن الأقلام المسلمة ، و المؤسسات التربوية ، و دور النشر فى العالم الاسلامى ـ نقول هذا مع أسف واعتذار ـ لم تعط هذا الجانب المهم ، حقه من العناية و الجمع و التأليف ، فلا يزال أطفال المسلمين و من كان فى سن حديثة ، يعيشون فى قلة و ندرة ، إذا لم نقل فى فقر و عوز ، من هذا الصنف من كتب صغيرة تجمع هذه الحكايات و الملتقطات من كتب التاريخ الضخمة ، و تكون

مكتبة للأطفال المسلمين تسهل الاستفادة منها ، و تقوى الرغبة فيها ، و يدوم أثرها فى نفوس الأطفال و النشء الحديث ،

و قد شرح الله صدر الكاتب لالتقاط حكايات خفيفة شائقة ، مثيرة مفيدة ، من كتب السيرة وتاريخ الإسلام ، والسير والتراجم ، بعد ما وفقه الله لتأليف سلسلة من « قصص النبيين للأطفال ١ — ٥ » كانت موضع عناية و تقدير فى الأوساط المدرسية فى شبه القارة الهندية والبلاد العربية ، و ثناء و إعجاب من رجال التربية وقادة الفكر الإسلامى ، وهذا فى الأربعينات الأولى من التقويم الحديث ، و صدرت عدة رسائل صغيرة ، فى كل رسالة حكاية ، ثم شغل عنها بأشغاله التعليمية والدعوية ، و التأليفيـــة فى موضوعات كبيرة علمية ، و لكنه شعر بمسيس الحاجة أخيراً إلى مواصلة هذا الموضوع ، و الزيادة فى مادته ، فاختار مواد جديدة من كتب التاريخ ، و صاغها فى لغة سهلة ، و أسلوب مبسط لائق بالأطفال ، و الذين حصل لهم إلمـــام باللغة العربية ، و بدأوا يفهمون اللغـة السهلة الميسرة ، فتكونت

بذلك رسالة أو كتاب صغير يحتوى عــلى ثمانى عشرة (١٨) حكاية ، يرجو المؤلف أن ينال بهذه الخطوة البدائية المباركة ، تقدير رجال التربية ، و أصحاب الأقلام فى اللغة العربية ، وأن تليها خطوات ، و تؤلف مجموعات ، تحتوى عــلى مثل هذه الحكايات ، و ربما تكون أبلغ و أقوى ، و أجمل لغة و أسلوباً من هذا الكتاب الصغير ، فيكون بذلك نال أجر النية والعزم ، و الترغيب فى مواصلة هذه الرحلة ، وإثراء المكتبة الإسلامية بجناح خاص بالأطفال ، وثروة نافعة ذات قيمة دينية ، تربوية ، خلقية ، و على الله قصد السبيل ؟

١٨/٦/١٤١١هـ　　　أبو الحسن على الحسنى الندوى

٦/١/١٩٩١م　　　الأمين العام لندوة العلماء ـ لكهنؤ

و رئيس رابطة الأدب الإسلامى العالمية

الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين

ولد رسول الله ﷺ فى مكة ، وهى وطنه و وطن آبائه ، وكان أهلها يعبدون الأصنام، و يعيشون حياة جاهلية ، لا يرضاها الله تعالى ، فيها الوثنية ، و فيها الجهل ، وفيها الظلم ، فبعث الله رسوله ، و هو فى سن الاربعين ، و أنزل عليه الوحى ، وأمره بالدعوة إلى التوحيد ، و الدين الخالص ، و فضائل الأعمال ، فعاداه أهل مكة ، حتى ضاقت الأرض علـــى هذه الدعوة ، و العقيدة ، و تنكر أهلها لهما .

و أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج هو و صاحبه أبو بكر رضى الله عنه من مكة مستخفين ، و اقتفى المشركون أثر رسول الله ﷺ ، و وصلا فى طريقهما إلى غار ثور — و هو على جبل بين مكة و المدينة — و دخلا الغار .

وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين الغار و الشجرة التى

كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله ﷺ و أبا بكر ، و أمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا تدفان (١) حتى وقعتا بين العنكبوت و بين الشجرة ، « ولله جنود السماوات والأرض » .

و وصل الباحثون إلى فم الغار ، و لم يبق بينهم و بين معرفتهم إلا أن ينظر أحدهم إلى تحت قدميه ، ولكن الله حال بينهم و بين ذلك ، فاختلط عليهم الأمر ، و رأوا على باب الغار نسج العنكبوت ، و كيف يدخل أحد الغار ، و لا يقطع نسج العنكبوت ، ويبقى على حاله ؟ .

وبينما هما فى الغار إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال رسول الله ﷺ : ما ظنك باثنين الله ثالثهما (٢) و فى ذلك يقول الله تعالى :

« ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن

---

(١) دف الطائر حرك جناحيه كالحمام .

(٢) الجامع الصحيح للبخارى « كتاب التفسير » .

إن الله معنا » (١) و اختلط على الباحثين و المتعصبين الأمر ، و انصرفوا خائبين .

و أقام رسول الله ﷺ بالمدينة و بدأت دعوة الاسلام تنتشر و الناس يدخلون فى دين الله ، و بقيت عداوة قريش و المشركين على حالها ، و بدأوا يحاربون الاسلام و المسلمين ، و المسلمون يقاومونهم و يقابلون السلاح بالسلاح ، و الجيش بالجيش .

و خرج رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى غزوة ، هل تعرفون ما هى الغزوة ؟ .

لعلكم تعلمون أن المسلمين كانوا يخرجون للجهاد فى سبيل الله ، و كانوا يقاتلون المشركين و الكفار لوجه الله تعالى ، ولعلكم تعلمون فضيلة الجهاد فى سبيل الله ؟ وكان النبى صلى الله عليه و آله وسلم يخرج أحيانا مع المسلمين ، و أحيانا يمكث فى المدينة لشغل أو مصلحة و يبعث جنداً من المسلمين .

فالغزوة ما خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى جند من المسلمين للجهاد فى سبيل الله .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

نعم خرج رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى غزوة و رجع عنها فى الظهيرة ، و كانت أيام الصيف ، فأراد رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم أن يستريح .

و ليس فى البرية مكان يستريح فيه الانسان إلا الشجر .

و ليس فى البرية فى بلاد العرب شجر كبير ، و ليس فيها إلا السمر (١) .

فنزل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم تحت سمرة و علق بها سيفه ، و تفرق الناس و ناموا ، و نام رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم تحت السمرة .

و جاء رجل من المشركين وسيف رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم معلق بالسمرة و هو فى غمده .

فأخذ المشرك السيف وسله من غمده ، و استيقظ رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

فقال المشرك ... والسيف مسلول فى يده .. لرسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : تخافنى ؟ .

---

(١) نوع من شجر البرية فيه شوك .

قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : لا !

قال المشرك : من يمنعك منى ؟ .

قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : الله ! .

فسقط السيف من يد المشرك، فأخذ رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم السيف .

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم للمشرك : من يمنعك منى ؟ فقال المشرك : كن خير آخذ ! .

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : أتشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله .

قال المشرك: لا ! و لكنى أعاهدك على أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

فخلى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم سبيله .

فأتى المشرك أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس (١).

---

(١) ملتقط من الصحيحين و صحيح أبى بكر الاسماعيلى .

المضيف الجائع

المهاجرون و الأنصار :

هاجر النبي صلى الله عليه و آله وسلم و أصحابه من مكة إلى يثرب وسكنوها .

هاجروا إلى يثرب وتركوا بيوتهم و أموالهم و إخوانهم وراءهم فى مكة فسماهم الله و رسوله « المهاجرين » .

و استقبلهم المسلمون فى يثرب و فرحوا بهم و قالوا « أهلا وسهلا ومرحباً » .

و أنزلوهم فى ديارهم و حكموهم فى أموالهم و أملاكهم فسماهم الله و رسوله « الأنصار » .

قال المهاجرون : بارك الله لكم فى أموالكم و أملاككم و أزواجكم فلا حاجة لنا فيها .

و لكن دلونا إلى السوق نتجر و نكتسب .

و هكذا فعلوا ، ذهبوا إلى السوق يبيعون و يشترون ، و أغنام الله سريعاً .

أصبحت يثرب مدينة الرسول صلى الله عليه و آله وسلم ، فما من أحد إلا و يسميها مدينة الرسول أو المدينة .

و أصبحت المدينـــة مدينة الإسلام ، مدينة الإسلام الوحيدة فى العالم .

و كانت هذه المدينة مهجر المسلمين فى العالم ، إذا أسلم أحد و آذاه قومه هاجر إلى المدينة و أمن مكرهم .

و كانت المدينة مدرسة الاسلام ، مـــدرسة الاسلام الوحيدة فى العالم .

فاذا أسلم أحد وجب عليه أن يتعلم الدين ، و يتعـــلم الحلال و الحرام و يتعلم أحكام الاسلام .

و وجب عليه أن يتعلم القرآن و الفرائض ، و يتعلم كيف يصلى و يصوم .

و كيف يمكن للسلم أن يصلى و يصوم ، و يعبـــد الله بغير العلم ، و كيف يمكنه أن يعيش بغير العلم .

و أين يذهب إذا أراد أن يتعلم الدين ؟ أإلى مكة ؟ لا ! إلى الطائف ؟ لا ، ليس هنا أحد يعلم الدين .

كانت المدينة مدرسة الاسلام ، مدرسة الاسلام الوحيدة فى العالم ، فلابد أن يتوجه إليها .

فكان المسلمون يتوجهون إلى المدينة من كل ناحية من نواحى العرب ، منهم من يفر بدينه من الفتن ، ومنهم من يريد أن يتعلم الدين .

و كان هؤلاء ضيوف الاسلام .

و كان هؤلاء يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، و كان الرسول صلى الله عليه و آله وسلم يفرح بهم ، و يقول لهم : أهلا وسهلا ومرحباً .

و كان هؤلاء ضيوف الله و رسوله ، وضيوف الاسلام.

و كان رسول الله صلى الله عليـــه و آله وسلم يريد أن يكرمهم ويطعمهم لأنهم ضيوف الله ورسوله، وضيوف الاسلام.

و لكن كان رسول الله صلى الله عليـــه و آله وسلم زاهداً فى الدنيا ، يأكل مرة و يجوع أخرى ، يأكل فيشكر ، و يجوع فيصبر .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قد لا توقد في بيته نار ، و لا يطبخ طعام ، و ما كان رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم يحب أن يجوع ضيوفه ، و هم ضيوف الله ، و رسوله ، و ضيوف الاسلام .

و قد قال صلى الله عليه و آله وسلم : « من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

و كان المسلمون فى المدينة أسرة واحدة ، و كانت المدينة بيتاً واحداً .

فاذا جاء ضيوف قسمهم النبي صلى الله عليه و آله وسلم على المسلمين فذهبوا بهم إلى بيوتهم و أضافوهم .

و ذهب هؤلاء الضيوف إلى بيوت المسلمين ، و أكلوا فيهـا و باتوا ، فكأنما أكلوا فى بيت واحد ، و كانوا ضيوف رجل واحد .

و كانوا ضيوف الله و ضيوف رسوله أينما كانوا .

و كان فى الأنصار رجل يحب الله و رسوله ، و يحبـه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و هو أبو طلحـة الأنصارى - رضى الله عنه .

و كان لأبي طلحة بستان فيه ظل بارد و ماء عذب .

و كان رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم يذهب إليه فى بعض الأيام و يجلس فى بستانه ، و يشرب الماء البارد .

و ذهب رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ذات يوم إلى بستان أبي طلحة ، و معه أبو بكر رضى الله عنه فجلس فى بستانه وشرب الماء ، وجاء أبو طلحة ففرح بهما جداً ، وذهب يذبح لهما شاة .

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : لا تذبح ذات ولد و ذات لبن ، و ذبح لهما أبو طلحة شاة ، و طبخها لهما ، فأكلا و شربا و حمدا الله ، و دعا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم لأبي طلحة .

و جاء ضيوف مرة إلى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فقسمهم على المسلمين .

و أخذ كل واحد نصيبه من الضيوف ، و أخذ أبو طلحة نصيبه من الضيوف .

وفرح أبو طلحة بالضيوف لأنهم ضيوف الله و رسوله وضيوف الاسلام .

وفرح أبو طلحة لأنه يرجو فى ذلك رضا الله و رسوله و ثواب الآخرة .

وسار أبو طلحة بضيوفه ، و هو لا يعلم هل يجد لضيوفه طعاماً فى بيته .

ولا يدرى أبو طلحة ماذا طبخت أم سليم ؟ .

ولا يدرى أبو طلحة هل فى البيت فضل من الطعام يأكله الضيوف ؟ .

ولا يدرى أبو طلحة هل أكل الأطفال طعامهم و ناموا ، أم ينتظرون الطعام ؟ .

لم يفكر أبو طلحة فى ذلك ، و لم يمنعه شيء .

وقطع أبو طلحة الطريق فى فرح وسرور والضيوف وراءه .

وقرع أبو طلحة الباب وسلم على أهل البيت ؟ السلام عليكم ، أأدخل ؟ .

و إذا صوت من الدار : وعليك السلام ، أدخل :

و دخل أبو طلحة وقال فى صوت المبشر ، معى ضيوف رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

قالت : أم سليم فى صوت المستبشر : مرحباً بضيوف رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

قال أبو طلحة : و ما فى البيت من الطعام ؟ .

قالت أم سليم فى غير جزع ولا خوف : طعام الأطفال فقط .

و ماذا يفعل أبو طلحة و الطعام لا يكفى أهـل البيت فكيف بالضيوف ؟ ! .

فكر أبو طلحة و اهتدى إلى حيلة لطيفة .

و الكريم له حيل و لطائف .

عزم أبو طلحة على أن يجوع هذه الليلة ويطعم ضيوفه .

و عزمت أم سليم على أن تجوع الليلة وتطعم ضيوفها .

و ماذا عليهما لوجاعا ليلة من الليالى و أطعما ضيوفهما ، إنهما لا يموتان إذا جاعا ليلة ! .

وعزما على أن يؤثرا الضيوف على أنفسهما .

وعزما على أن يسكتا الأطفال فينامون ويأكل الضيوف .

و لكن كيف يأكل الضيوف و المضيف لا يأكل .

فكر أبو طلحة فى ذلك و وجد إلى ذلك سبيلا .

قال لأم سليم : إذا جلسنا نأكل ، إذهبي إلى السراج كأنك تريدين أن تصلحيه و أطفئيه .

و هكذا كان ، جلس الضيوف ليأكلوا و جلس أبو طلحة ليأكل .

و ذهبت أم سليم إلى السراج ، كأنها تريد أن تصلحه .

و أطفأت أم سليم السراج .

انطفأ السراج ، و بدأ الضيوف يأكلون فى الظلام .

و كان أبو طلحة يمد يده إلى الصحفة و يرفعها ولا يتناول شيئاً .

و كان أبو طلحة يريهم أنه يأكل ، وهو لا يأكل شيئاً .

و لا يشك الضيوف فى أكله ، و لماذا يشكون ؟ من يترك العشاء ؟ و من يجوع الليلة ؟ أكل الضيوف مطمئنين ، وشبعوا وظنوا أن أبا طلحة شبع أيضاً .

و لكن أبا طلحة لم يرفع لقمة إلى فيه ، و كان الظلام عوناً لأبى طلحة .

و قام الضيوف وغسلوا أيديهم وحمدوا الله و دعوا لمضيفهم بالبركة .

و قام أبو طلحة وغسل يده .

و بات الضيوف شباعاً ، و بات أبو طلحة جائعاً .

و لكن أبا طلحة كان أكبر سروراً و أكثر شكراً لله في هذه الليلة منه في الليالي السابقة .

حضر أبو طلحة مجلس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على عادته .

و كان أبو طلحة مطمئناً مسروراً كأنه بات شبعان :

و يظن أبو طلحة أن قصة الليل كانت سراً من الأسرار لا يعلمه إلا هو و زوجه أم سليم .

و لكن الله يعلم السر و أخفى ، وقد أنزل الله في ذلك آية ، وقال : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » :

وسأل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم عن القصة و أخبره أبو طلحة بخبره .

وفرح النبي صلى الله عليه و آله وسلم بهذا الإيثار وبهذا الكرم و رضى عن أبي طلحة .

و بقيت القصة خالدة في التاريخ و التفسير .

« رضى الله عن أبي طلحة و أرضاه » .

شهامة اليتيم

لما دعا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم الناس إلى الله في مكة ، و نادى فى الناس « لا إله إلا الله محمد رسول الله » غضبت قريش ، و كانت تعبد الأصنام ، و كانت فى الكعبة — التى بناها ابراهيم و اسماعيل « عليهما الصلاة و السلام » لعبادة الله وحده — ثلاث مائة وستون صنماً ، فاشتعلت قريش غضباً و آذوا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، و عذبوا المسلمين ، فصبر رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، وصبر المسلمون و ثبتوا لهم كالجبال .

ولكن قريشاً كانوا يمنعون الناس عن الإسلام و يحولون بين المسلمين و عبادة الله ، فأذن الله لرسول الله صلى الله عليه و آله وسلم بالهجرة ، فهاجر إلى المدينة ، و هاجر المسلمون ، و كانت المدينة أرضا طيبة للاسلام ، فى أهلها لين و رقة ، قد أسلم منهم كثير قبل الهجرة .

و لما انتقل النبي صلى الله عليه و آله وسلم من مكة إلى المدينة وسكن هنالك أحب أن يبنى مسجداً ، لأن المسجد لازم للسلمين ، وهو قطب تدور حوله رحى الحياة الاسلامية .

و كان النبي صلى الله عليه و آله وسلم نازلا فى بيت أبي أيوب الأنصارى (رضى الله عنه) و كان ضيفاً عليه ، و كان قريبا من بيته مربد (۱) فأراد رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم أن يبنى المسجد فى ذلك المكان ، قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : لمن هذا المربد ؟

قال رجل من الأنصار اسمه معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله ! ليتيمين ، اسم أحدهما سهل ، و اسم الثانى سهيل .

طلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهلا و سهيلا ، وهما ولدان يتيمان ، فلما حضرا ، كلمهما رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى أمر المربد و ثمنه .

قال سهل وسهيل : هو يا رسول الله ! لله ، لا نشترى به ثمنا ، فابن المسجد ، و قد طابت به أنفسنا ، و لكن رسول الله

---

(۱) محبس الابل و موضع جمع التمر .

صلى الله عليـــه و آله وسلم أبى و اشترى منهما المكان ، و دفع الثمن .

و بنى المسلمون المسجد ، و رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم يعمل بيده و ينقل اللبن ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا و النبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

و كان المسلمون يرددونه و يقولون :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار و المهاجرة

و قد زاد فى هذا المسجد أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) و الملوك بعده حتى كان مسجدا جليلا جميلا يسع آلافاً من المصلين ، قدر الله زيارتكم له و الصلاة فيه .



مسابقة بين شقيقين

قال سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : كنت واقفا يوم بدر و غلامان من الأنصار معاذ بن عفراء و معوذ ابن عفراء عن يميني و شمالي .

و التفت إلى أحدهما ، و قال لي سرا من صاحبه : « أي عم ! هل تعرف أبا جهل » ؟

فقلت : نعم ! و ماذا تريد منه يا ابن أخي ؟

قال : أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، أرنيه يا عم ! فاني أعطيت الله عهدا إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .

و قال لي الآخر سرا من صاحبه : أرنيه يا عم ! فاني عاهدت الله إن عاينته أن أضربه بسيفي حتى اقتله .

فبينا أنا كذلك إذ برز أبو جهل ، فقلت : ألا تريان ؟ هذا

أبو جهل ، هذا صاحبكم ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه .

ثم انصرفا إلى النبي صلى الله عليه و آله وسلم فأخبراه .

فقال : « أيكما قتله ؟ » .

قال كل منهما : أنا قتلته .

قال : « هل مسحتما سيفيكما » ؟

قالا : لا !

فنظر النبي صلى الله عليه و آله وسلم فى السيفين .

فقال : كلاهما قتله .



الحنين إلى الشهادة

لما أراد رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم الخروج إلى بدر ليقاتل المشركين ، خرج غلام اسمه عمير بن أبي وقاص ، عمره ست عشرة سنة .

و كان عمير يخاف أن لا يقبله النبي صلى الله عليه و آله وسلم، لأنه صغير ، فكان يجتهد أن لا يراه أحد، و كان يتوارى.

ولكن رآه أخوه الأكبر سعد بن أبي وقاص ، فقال له : مالك يا أخي ؟ لأي شئ تتوارى ؟

قال عمير : أخاف أن يردني رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم، فاني صغير ، و أنا أحب الخروج ، لعل الله يرزقني الشهادة .

وكان كما خاف عمير ، فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى أنه صغير، و الحرب ليست من شغل الأطفال و الغلمان، وما يصنعون فى الحرب، و إنها لكبيرة على الرجال؟

و لكن عميراً ما أحب أن ينصرف ، و يقعد فى البيت ، أو يلعب مع أترابه و أصدقائه فى المدينة ، و إنه ليريد الشهادة فى سبيل الله !

و لكن عميراً لا يعصى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، ولا يعاند ، فانه لا يريد إلا رضا الله ، وهل ينال رضا الله إذا عصى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ؟ أبداً .

كان عمير فى حيرة و حزن شديد ، هو لم يبلغ سن القتال ، ولكنه يحن إلى الشهادة ، و إلى الموت فى سبيل الله ، و يحن إلى الجنة ، و يراها غير بعيدة ، ولكن كيف يصل إليها ، وهو لم يبلغ سن القتال ؟ !

كل ذلك ثقل على عمير ، و كان قلبه صغيراً ، فبكى و لما بكى عمير رق له قلب رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، و كان رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم رقيقاً رفيقاً فأجازه .

لا تسألوا عن فرح عمير وسروره لما أجازه النبي صلى الله عليه و آله وسلم ، فكأنما نال تذكرة الجنة .

وخرج عمير مع أخيه ومع المسلمين ، وكلهم كبار وأقوياء ،

و كان كما أراد ، فقد قتل شهيداً فى الغزوة ، و سبق كثيراً من الشبان و الشيوخ .

رضى الله عن عمير و أرضاه .

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم إلى أحد لقتال قريش خرج معه من المدينة غلمان يحبون الجهاد فى سبيل الله ، و كانوا صغاراً ، لم يتجاوزوا الخامسة عشرة من عمرهم ، فردهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، لأنهم صغار ، لم يبلغوا سن القتال فيكونون كالمتاع ، و يشغلون الكبار أيضاً يراقبونهم و يحرسونهم .

و كان فى هؤلاء الغلمان ولد ، اسمه رافع بن خديج ، وهو دون الخامسة عشرة من سنه ، و كان يتطاول من شدة الشوق ، ليظن الناس أنه كبير ، قد بلغ سن القتال ، فلا يفطن لصغر سنه و ضعفه .

و لكن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم رده ، لأنه عرف أنه صغير ، و أنه يتطاول ، فشفع له أبوه ، و قال : يا رسول الله ! إن ابنى رافعاً رام ، فأذن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

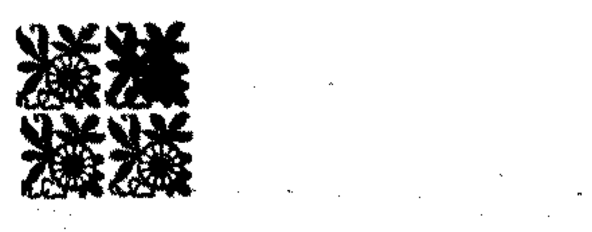
ففرح رافع كثيراً لما أذن رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، و خرج مع المجاهدين ، وهو أكثر سروراً من غلمان يخرجون إلى المصلى يوم العيد فى لباس جديد .

و كان ولد آخر اسمه سمرة بن جندب فى سن رافع ، فعرض على رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم بعد رافع فرده رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم لصغره أيضاً ، فقال سمرة : لقد أجزت رافعاً و رددتنى ، ولو صارعته لصرعته .

فأمر رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم سمرة و رافعاً بالمصارعة ، فصرع سمرة رافعاً كما قال ، و استحق أن يسمح له بالدخول فى صف المجاهدين .

فأجاز رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم سمرة للخروج ، فخرج سمرة ، و قاتل يوم أحد فى سبيل الله .

رضى الله عن رافع و سمرة ، و رزقنا اتباعهما .



من دون أُحُد

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لقتال المشركين و خرج معه من حضر من المسلمين .

خرج رسول الله ﷺ و ثلاث مائة و بضعة عشر من أصحابه ، و لم يعلم بذلك كثير من المسلمين .

خرج بعض المسلمين يرعى إبله و خرج بعضهم يسق زرعه ، و خرج بعضهم يحرس بستانه ، و خرج بعضهم يفتح دكانه .

و انتشروا فى حاجاتهم لأنهم أهل جد و شغل .

و لا يعرفون أن رسول الله ﷺ خارج إلى بدر أو غير بدر ، و ذهب أنس بن النضر لبعض شأنه .

و لا يدرى أن رسول الله ﷺ خارج اليوم إلى بدر ، لو عرف الرجل ذلك لما فارق رسول الله ﷺ .

و لما برح مجلسه ذلك اليوم .

إنه كان حريصاً على الجهاد فى سبيل الله .

إنه كان حريصاً على الشهادة فى سبيل الله .

ونصر الله المسلمين فى بدر ، فهزموا المشركين شر هزيمة .

و أمد الله المسلمين بألف من الملائكة مردفين (١) .

و قتل المسلمون سبعين من المشركين ، و أسروا منهم سبعين .

و قتل أبو جهل بن هشام ، و عتبة بن ربيعة ، و قتل وليد و شيبة .

و كان يوم بدر يوم الفرقان ، و كان يوماً على الكافرين عسيراً .

رضى الله عن أصحاب بدر و آتاهم مغفرة منه و أجراً كبيراً .

و لما علم أنس بن النضر أن رسول الله ﷺ خرج إلى بدر و قاتل المشركين .

---

(١) ردف ردفاً تبعه ، و ركب خلفه و صار له ردفاً ، و أردف توالى و أركبه معه .

و أن المسلمين خرجوا معه و قاتلوا المشركين .

و علم أن يوم بدر كان يوم الفرقان .

يوماً فرق بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان .

يوماً ابيضت فيه وجوه المسلمين ، و اسودت وجوه المشركين .

حزن أنس على غيبته حزناً شديداً .

و جاء إلى رسول الله ﷺ متأسفاً حزيناً و قال له :

« يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ليرين الله ما أصنع .

قال أنس ذلك بصوت فيه الحزن و فيه الشجاعة .

و فيه الايمان و فيه التوكل على الله ،

من المؤمنين رجال لو أقسموا على الله لأبرهم، ولو تكلموا عن أنفسهم لصدقهم ، و بقى أنس ينتظر ذلك اليوم الذى يشفى فيه نفسه و يرضى فيه ربه .

و بقى أنس لا يطيب له طعام و لا شراب ، ولا يسكن إلى أهل و لا أصحاب .

رجع المشركون من بدر و قد قتل منهم سبعون و أسر منهم سبعون .

و رجعوا إلى مكة و قد أظلمت لهم الدنيا و ضاقت عليهم الارض .

رجعوا إلى مكة لا يرفعون رؤوسهم من الخجل ، لقد هزموا هزيمة منكرة فى بدر .

ماذا يقول الناس عن قريش ، لقد هزم ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلا ألف فارس من قريش ، واعجباه ! .

أين الذى كنا نسمعه من شجاعة قريش ، و من فروسية قريش ، و من عزة قريش ؟

لقد طار ذلك فى الآفاق ، و انتشر فى القبائل ، وتحدث الناس به فى المجالس !

و كيف يخفى مثل بدر على الناس ، و كيف يخفى قتل أبى جهل ، و قتل عتبة على القبائل ؟ !

و كيف تواجه قريش الناس فى الموسم ، و كيف تفتخر عليهم فى منى ؟

و ماذا تقول عن محمد و أصحابه ، و قد هزموا جيشها بالأمس هزيمة منكرة ؟

عزمت قريش على أن تخرج من هذه المشكلة .

عزمت على أن تأخذ ثار بدر ، عزمت على أن تغسل عنها عار بدر .

إن هذا هو الحل الوحيد ، إن هذا هو الأمر الرشيد .

و لما بلغ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم خروج المشركين من مكة جمع أصحابه ، وقال لهم : ماذا ترون ؟ هل نقاتلهم فى المدينة أو نخرج إليهم ؟

و كان من رأى الشيوخ أن يبقى المسلمون فى المدينة و يقاتلوا المشركين .

و كان ذلك ما يراه النبى صلى الله عليه و آله و سلم ، و كان هذا هو الرأى .

وكان الشبان يرون أن يخرج المسلمون من المدينة ويقاتلوا المشركين ليظهر بلاؤهم و جلادتهم .

و تنازل الرسول صلى الله عليه و آله وسلم إلى رأيهم و خرج من المدينة .

و لما كان فى الطريق انعزل عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر ، وكان رأيه أن لا يخرج رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم من المدينة ، و قال تخالفنى و تسمع من غيرى ؟ .

و هكذا كان المسلمون سبع مائة فيهم خمسون فارساً .

و استعمل رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم عبد الله ابن جبير على الرماة — و كانوا خمسين — و أمره و أصحابه أن يلزموا مركزهم ، و أن لا يفارقوه ، و لو رأو الطير تتخطف العسكر .

و أمر رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم الرماة أن يرموا المشركين لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم .

و أعطى اللواء مصعب بن عمير و دفع سيفه إلى أبى دجانة و كان شجاعا بطلا .

و دارت رحى الحرب .

ودارت رحى الحرب ، و كانت الدولة أول النهار للمسلمين على الكفار .

و انهزم عدو الله و ولوا مدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم و لكن يا للأسف ! لم يحفظ الرماة قول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و عملوا برأيهم .

لقد أمرهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يلزموا مركزهم ، و أن لا يفارقوه ، و لو تخطفت الطير العسكر .

لو فعلوا ذلك و لزموا مركزهم لكان خيراً لهم ، و لكن ذلك لم يكن .

لما رأى الرماة هزيمة الكفار تركوا مركزهم الذى أمرهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بحفظه .

و قالوا : يا قوم الغنيمة ! الغنيمة !

وذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير عهد رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم و قال : يا قوم ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم : الزموا مركزكم و لا تفارقوه ولو تخطفت الطير العسكر .

و لكن أصحاب عبد الله لم يسمعوا قوله ، و ظنوا أن

المشركين قد انهزموا ، و أنهم لا يرجعون ، فلماذا نبق فى مكاننا ؟ .

و ها أولئك أصحابنا يأخذون الغنيمة ، فلماذا نتركها نحن ؟

إن الحرب قد انتهت ، و راح المشركون ، فلا رجعة لهم ! .

فما معنى البقاء هنا إذن ؟ إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يرد ذلك ! إن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم لم يأمر بذلك .

و ذهب هؤلاء و بقى عبد الله يحفظ الثغر .

رضى الله عن عبد الله و عفا عن أصحابه .

وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر (١) خالياً ، قد خلا من الرماة فدخلوا منه و اجتمعوا بعد ما تفرقوا .

و قتل عبد الله بن جبير و من بقى معه من أصحابه .

و قتل سبعون من الصحابة فأكرمهم الله بالشهادة .

و انكشف المسلمون و ثبت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و جماعة من أصحابه .

---

(١) الثغر المكان الذى يخاف منه هجوم العدو .

و وصل المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فجرحوا وجهه و كسروا رباعيته ، و هشموا البيضة على رأسه ، و رموه بالحجارة حتى وقع فى حفرة .

فأخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بيد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ، و احتضنه طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه .

ونشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فانتزعهما أبو عبيدة رضى الله عنه ، و عض عليهما حتى سقطت ثنيتاه .

يا لهما من سنين مباركتين ! يا لهما من سنين ثمينتين !

قال أبو بكر — رضى الله عنه — : غابت حلقة من حلق المغفر (١) فى وجنة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فذهبت لأنزعها عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ، فقال أبو عبيدة رضى الله عنه نشدتك بالله يا أبا بكر ، إلا تركتنى فذهب ينزعها حتى سقطت ثنيته .

(١) ما يلبسه المحارب تحت القلنسوة من حديد .

قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر ، قال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر إلا تركتني ، قال فأخذ أبو عبيدة السهم بفيه حتى سقطت له ثنية ثانية .

امتص مالك بن سنان رضي الله عنه الدم من وجنته ، فقيل له : مجه فقال : و الله لا أمجه أبداً .

و تقدم المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و أرادوا شراً ، و أبى الله ذلك و المؤمنون .

و حال دون رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم عشرة من الصحابة فقتلوا جميعاً ، و لم يبق منهم أحد .

وترس أبو دجانة رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بظهره ، و النبل يقع فيه و هو لا يتحرك .

و ترس عليه طلحة بن عبيد الله بيده و النبل يقع فيها حتى شلت .

ما أكرمه من ظهر ! و ما أكرمها من يد !

و أراد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يعلو صخرة فلم يستطع لما به من ضعف و جراح .

فجلس طلحة تحته حتى صعدها ، يا له من مطية و يا له من راكب !

و قاتلت أم عمارة قتالا شديداً و ضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات و ضربها عدو الله بالسيف فجرحها جرحا شديداً .

و بقى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم مرة فى سبعة من الأنصار و رجلين من قريش ، هجم المشركون ، فقال من يردهم عنى و له الجنة ، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل .

ثم هجموا فقال من يردهم عنى فله الجنة و هو رفيق فى الجنة فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة .

و ثبت أنس بن النضر رضى الله عنه و قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المسلمين — و أبرأ إليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — .

و مر أنس بقوم من المسلمين قد ألقوا بأيديهم فقال ما تنتظرون ؟

قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم !
فقال ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات
عليه ! و لقى أنس سعد بن معاذ رضى الله عنهما ، فقال
يا سعد إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

و تقدم أنس إلى الجنة و هو يراها أمامه ، فقاتل الذين
كانوا يريدون أن يحولوا دونها .

و قاتل أنس قتالا شديداً حتى قتل و به بضع و ثمانون
ضربة ما بين طعنة برمح ، و ضربة بسيف ، و رمية بسهم .

و وجده المسلمون قد قتل و مثل به المشركون فما عرفه
أحد إلا أخته ببنانه (١) .

رحمة الله عليك يا أنس ! فليكن الرجال هكذا ، وهكذا
فليكن الأبطال ! .

(١) سيرة ابن هشام و زاد المعاد .

على الخشبة

كان أصحاب النبي صلى الله عليه و آله وسلم يعبدون ربهم ، ويشتغلون بالتجارة والزراعة ويشتغلون بالصناعات كالحياكة ، و الخياطة ، و الحدادة ، و النجارة ، و الدباغة و غير ذلك .

فكانوا عباداً و طلبة علم ، و تجاراً و فلاحين ، وصناعين ، وكانوا مسلمين أولا و كانوا مسلمين آخراً .

و كانوا كأوساط الناس ، يأكلون و يشربون ، ويتكلمون و يضحكون ، و يبيعون و يشترون ، و يزرعون و يصنعون ، إلا أن كل ذلك في سبيل الله ، لأنهم يبتغون به وجه الله .

كانوا يعبدون ربهم لأنهم خلقوا لأجله ، « و ما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون » .

و كانوا يطلبون العلم لأنهم سمعوا « و ما يعقلها إلا العالمون » وسمعوا « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

و كانوا يشتغلون بالتجارة و الزراعة و الصناعات لأنهم سمعوا « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض و ابتغوا من فضل الله » حتى إذا سمعوا مناديا ينادي « إنفروا في سبيل الله » وسمعوا قائـلا يقول : « قوموا إلى جنـة عرضها السماوات و الأرض » تركوا التجارة و الزراعة و الصناعات و خرجوا للجهاد في سبيل الله .

و تركوا الأهل ، و الأموال ، و الأولاد ، و الدار ، و الوطن و خرجوا في سبيل الله .

ولماذا لا يفعلون ذلك وهم يسمعون نبيهم يقول : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا و ما فيها » .

و يسمعونه يقول : « و الذي نفس محمد بيده لوددت أن أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » .

ويسمعونه يقول : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » و يقول : « إن مقـام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً » .

أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً أن يبعث جماعة من المسلمين إلى أرض العدو تعرف له أخبار المشركين .

و كان يعلم أنها أرض العدو ، و أن المشركين بالمرصاد فاختار عشرة رجال لا يحبون الحيـاة و لا يكرهون الموت ، و أمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصـارى رضى الله عنه ، ودع هؤلاء أهلهم و أولادهم و أصدقاءهم: لأنهم يعلمون أنهم خارجون إلى أرض العدو ، و أن المشركين بالمرصاد .

و قالوا لأهلهم و أولادهم و أصدقائهم: وداعاً أيها الأحبة و إلى اللقاء غداً يوم القيامة .

و انطلقوا من المدينة وساروا فى سبيل الله حتى وصلوا إلى موضع يقال له الهدأة (١) — بين عسفان و مكة .

و ذهب إلى بنى لحيان رجل يسعى و قال لهم : هـــل تعلمون أن بالهدأة جماعة من المسلمين ؟ .

قالوا : و الله ما ندرى و ما عندنا منهم خبر ! .

قال : فانهم والله بالهدأة ، لقد رأيتهم ، و الله بعينى هذه ، وجئت لأخبركم بهم لتروا فيهم رأيكم .

قالوا : جزيت خيراً ، وكم هم يا أخا بنى فلان ؟ .

قال : أراهم لا يزيدون على عشرة .

---

(١) موضع بين عسفان و مكة .

قالوا : فينبغى لهم مائة رجل لأن الواحد من هؤلاء يساوى عشرة ، أما سمعتم قول ربهم « يا أيها الذين آمنوا إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين و إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون » (١).

أما رأيتم كيف هزموا بالأمس — و هم بضع و ثلاث مائة — جيش قريش ، وقتلوا من سادتنا و رؤسائنا .

والله لا ننسى أبا عكرمة سيد قريش ، ولا ننسى أبا الوليد ، ولا ننسى شبله .

يا قتلى بدركم لكم فى أعناقنا من حق و ذمة ! .

قوموا أيها الاخوان ندرك ثأر بدر .

و قام مائة رجل من بنى لحيان و قالوا : إلى أعدائنا ، إلى الهداة حيث ندرك ثأر بدر .

و انطلقوا يسألون عن هؤلاء العشرة ، هل رأيتم يا ناس رجالا من يثرب ، هل رأيتم أحداً يصلى ؟ .

و ذهبوا يرون آثارهم فى الرمل حتى اهتدوا إلى مكانهم وفرحوا جداً .

---

(١) سورة الانفال ، الآية : ٦٥ .

فلما أحس بهم عاصم و أصحابه لجئوا إلى موضع فأحاط بهم القوم .

فقالوا : انزلوا فأعطوا بأيديكم و لكم العهد و الميثاق أن لا نقتل منكم أحداً .

و لكن عاصماً كان يعرف أن الكافر ليست له ذمة و لا عهد ، و ماله وفاء و لا أمانة ، و أن الكافر لا يمنعه من الغدر شيء .

إنه سمع الله يقول عن الكفار و المشركين « لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة » و يقول « إنهم لا أيمان لهم » .

أما جاؤا بالأمس إلى النبي صلى الله عليه و آله وسلم ـ و قالوا له : ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن و السنة ، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار ، يقال لهم القراء ، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان .

كان عاصم يعرف ذلك جيداً ، فكان لا يثق بكافر ، ولا يغتر بأحد ، فأبى أن يثق بهؤلاء ، و هم لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر ، فماذا يمنعهم من الغدر ، و أى شيء تحملهم على الوفاء ؟ ! .

قال عاصم: أيها القوم ، أما أنا فلا أنزل على ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك صلى الله عليه و آله وسلم .

وغضب المشركون ، و أطلقوا على المسلمين السهام و رموهم بالنبل ، وقتلوا عاصماً ، وقتلوا معه ستة .

و أكرم الله عاصماً بالشهادة ، و كان فى ذمة الله وحده ، فبعث له مثل الظلة من النحل ، فكانت تحميه وتحرس جسده .

و كان عاصم قد قتل رجلا من عظماء قريش فبعثوا إليه رجلا يأتى بشيء منه ليعرفوا أنه قتل .

و أبى الله أن يمسوا جسده وهو فى ذمته ، أبى أن ينزل فى ذمة كافر ، و رأوا النحل تحميه ، فخافوا ، و لم يجدوا إليه سبيلا ، و رجعوا و لم يقدروا أن يقطعوا منه شيئاً .

و لما رأى أصحاب عاصم أن عاصماً قد قتل ، و أنهم إذا قتلوا جميعاً من يعرف أخبار المشركين ، و من يخبر النبي — صلى الله عليه و آله وسلم — بأحوالهم ؟ .

وقد بعثهم النبي — صلى الله عليه و آله وسلم — ليعرفوا أخبار المشركين .

و اجتهد عاصم و كان له أجر ، و اجتهد أصحابه و كان لهم أجر ، و كل أراد وجه الله وكلا وعد الله الحسنى .

نزل ثلاثة نفر على العهد و الميثاق ، منهم خبيب ، و زيد بن الدثنة ، و رجل آخر .

و لما استمكن المشركون من هؤلاء الثلاثة أطلقوا أوتار قسيهم فربطوهم .

قال الرجل الثالث : هذا أول الغدر ، و الله لا أصحبكم ، إن لى بهؤلاء أسوة — يريد القتلى .

فجروه و اجتهدوا أن يصحبهم ، فأبى فقتلوه .

و انطلقوا بخبيب و زيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة .

و كان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلما سمع ابناء الحارث أن خبيباً — قاتل أبيهم — أسير عند بنى لحيان ، ذهبوا إليهم و اشتروه ليقتلوه بأبيه .

ومكث خبيب عند بنى الحارث أسيراً ، لا يدرى متى يقتل ، إلا أن القتل لابد منه .

فأراد أن يتنظف و يستعد للقاء ربه ، فاستعار موسى .

ومشى طفل صغير لبعض بنات الحارث و هي غافلة وجاء خبيباً ، و الأطفال لا يعرفون العدو من الصديق .

و كان خبيب بعيد العهد بأولاده و أطفاله ، و كان خبيب رقيق القلب رحيما ، و المؤمن بر كريم يرحم الضعفاء و يحن على الصغار ، ولا يغدر ولا يقسو .

و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم — رفيقاً رقيقاً يحب الأولاد الصغار ، و يقبلهم .

فرح خبيب بالغلام ورفعه و أجلسه على فخذه — و موسى بيده — والتفتت أم الصبي فرأته جالساً عل فخذ خبيب ففزعت .

يا لهول المنظر ، الغلام على فخذ العدو — و هو مقتول غداً — و الموسى بيده ، إنها لفرصة سعيدة للعدو ، يذبح الغلام ويشفي نفسه .

مسكينة ! ما عرفت المؤمن و ما جربت وفاءه ، و كرمه و مروءته ، ما عرفت أن المؤمن تأبى عليه كرامته و شريعته أن يقتل الغلمان و الأطفال ، أو أن يسطو بالشيوخ و النساء في ساحة القتال ، فكيف في البيوت ! .

وعرف خبيب فزعة المرأة ، فقال : أتخشين أن أقتله ، ما كنت لأفعل ذلك ! .

و كان خبيب أسيراً عند بنى الحارث ، كان أسيراً عند أعدائه ، و قد قتل أباهم بالامس ، وهم قاتلوه غداً .

و كان خبيب لا يجد من الطعام إلا ما يقدمه له بنو الحارث لئلا يموت ، و كيف يقتلونه إذا مات ، و كيف يشفون أنفسهم ؟ ! .

و لكن خبيباً كان ضيف ربه ، أما هجر داره و أهله وطعامه و شرابه فى سبيله ؟ فكان ربه يطعمه و يسقيه ، إن الله شاكر عليم .

و كان خبيب قد انتقل من عالم الحس و المادة إلى عالم الروح و الغيب ، يتمنى لقاء ربه ، و ينتظر الشهادة فى كل وقت ، وقطع الرجاء من الحياة ، و خرج من سلطان الدنيا .

فكانت تأتيه الهدايا من الجنة ، ومن عند الله ، نزلا من غفور رحيم .

و كانت قصته كقصة مريم ابنة عمران ، « كلما دخل عليها

زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب »(١) .

فكان خبيب تأتيه الفواكه و الأثمار في غير زمانها ، و كان لا يدرى أحد من أين تأتيه هذه الأثمار ، و هو أسير موثق بالحديد .

قالت بنت الحارث : و الله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب ، فو الله لقد وجدته يوماً يأكل قطفاً (٢) من عنب في يده و إنه لموثق بالحديد ، و ما بمكة من ثمرة .

و كانت تقول : إنه لرزق رزقه الله خبيباً .

و لكن كل ذلك — ما رأى بنو الحارث من كرم خبيب و من كرامته عند الله - لم يمنع بني الحارث من أن يقتلوا خبيباً .

إن العداوة تعمى و تصم ، إن الكفر يعمى و يصم ، و خرج بنو الحارث بخبيب من الحرم ليقتلوه في الحل .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٧ .

(٢) القطف الثمار المقطوفة المقطوعة .

أما فى الحل من يخافونه ، أما فى الحل من يرامم ، أيجوز الظلم فى الحل و لا يجوز فى الحرم ؟ .

ولكن الكفر يعمى ويصم ، ولكن الشيطان يعمى ويصم .

و لما أيقن خبيب بالموت قال : دعونى أصل ركعتين ! فتركوه فركع ركعتين .

و لما انصرف من صلاته قال : كنت أريد أن أزيد ، و كنت أحب أن أطيل القيام أمام ربى ، و لكنى خشيت أن تقولوا : يريد خبيب أن يتأخر عن الموت فيطيل الصلاة ، لقد جزع خبيب من القتل .

وها أنا ذا واقف أمامكم فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ، و اقتلهم بدداً ، و لا تبق منهم أحداً ، و أنشد ! .

فلست أبالى حين أقتل مسلماً

على أى جنب كان لله مصرعى

و رفعوا خبيباً على الخشبة و قاموا حوله يطعنونه بالرماح و يتفرجون عليه .

ما أجمله من راكب ، و ما أقبحهم من متفرجين ، أيتفرجون على رجل وهب نفسه لله ، و لم يبال أوقع عليه الموت ، أم على الموت وقع .

أيتفرجون على رجل لم يغدر و لم يخن ، و لم يكذب ، و لم يظلم ، ولم يسألهم مرة أن يطلقوه .

أيتفرجون على رجل وثق بهم فغدروا به وائتمنهم فخانوه؟!

و لما رفعوا خبيباً على الخشبة وطعنوه بالرماح أرادوا أن يمتحنوا حبه و ولاءه للنبي صلى الله عليه و آله وسلم .

إن خبيباً على الخشبة قد نهشته الرماح و مزقت جلده ، وقطعت لحمه .

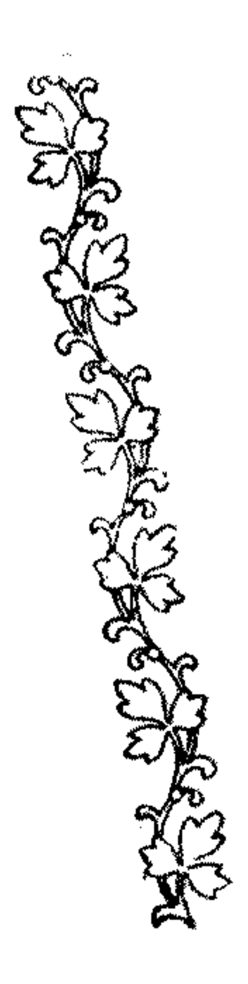
هنا يذهل الخليل عن خليله ، و يذهل المرء عن أخيه وأمه ، وأبيه ، و صاحبته و بنيه .

نادوا خبيباً يقولون له : بالله أخبرنا يا خبيب ! أتحب ان محمداً مكانك ؟ .

صرخ خبيب بأعلى صوته ، و قال : و الله ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في رجله .

فقضوا العجب مما سمعوا ، و ربحتهم ضمائرهم ، فأخفوا ذلك و أجهزوا على خبيب (١) .

رحمة الله عليك يا خبيب ، لقـــد سننت سنة للحبين ، و تركت ذكراً فى الآخرين .



---

(١) سيرة ابن هشام ، و رواه البخارى فى كتاب المغازى ، باب التوحيد و الجهاد .

كلمة قتيل كانت سببًا لإسلام القاتل

بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفراً من أصحابه على طلب بعض الناس ، ليدعوهم إلى الاسلام ، و كانوا سبعين رجلا من خيـــار المسلمين ، و كان في هذه السرية حرام بن ملحان ، قتله أحد المشركين ، و هو جبار بن سلمى وكان مستبعداً أن يسلم ، و لكنه أسلم قريباً ، فاستغرب الناس ، و سألوه عن سبب إسلامه ، فقال ما معناه :

« إن قصة إسلامي أني واجهت مسلماً ، اسمه حرام بن ملحان طعنته برمح بين كتفيه ، و نظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : « فزت و رب الكعبة » .

قلت ما معنى هذا ؟ هل أنا في حلم أم هذا كاذب ؟

و الانسان لا يكذب عند الموت ، و إذا كان يكذب

فى بعض الأحيان ، فعند الموت لا يكذب ، و ما جرب على العرب الكذب .

و كان لجبار بن سلمى حق فى أن يستغرب و يحار ، و يقول فى نفسه ، طعنت رجلا برمح ، و دخـــل الرمح من جانب و خرج من جانب ، و خر صريعاً يشحط (١) فى دمه ، و يلفظ نفســـه الأخير ، ثم يقول : « فزت و رب الكعبة » .

إنه أيقن أن زوجه ستكون أرملة ، و أبناؤه ستكونون أيتاماً ، إنه حرم كل لذة فى الدنيا ، فلا شراب و لا طعام ، و لا نور شمس ، و لا ضوء قمر ، و لا حديث و لا سمر ، و ليس له إلا حفرة قبر ، فما هذا الفوز ؟

و سألت بعض المسلمين عن قوله ، فقالوا : للشهادة ، إنه كان يؤمن بالله و اليوم الآخر ، و يعرف ما يفوز به الشهيد من السعادة و رضا الله و نعماء الجنـــة ، كأنه يراها بعينيه . فقال : « فزت و رب الكعبة » .

---

(١) شحط بالدم : تضرج به و تمرغ فيه .

قلت فاز لعمر الله .

و عرف جبار بن سلمى أن وراء هذا العالم عالماً آخر ، و أن وراء هذه اللذات و المسرات التى ينعم بهـــا ، لذات و مسرات ألذ منها ، و أعظم منها ، و أوسع منهـــا ، و هى اللذات و المسرات التى لا تنقضى ، والحياة التى لاتنتهى . والله سبحانه و تعالى يقول :

« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءاً بمـا كانوا يعملون (١) »

و يقول :

« و لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله (١) » .

و هكذا كانت كلمة بسيطة خرجت من قلب مؤمن ، ونطق بها لسان مؤمن ، سبباً لايمـــان كافر لا يؤمن بالله و رسوله

---

(١) ألم السجدة : الآية ١٧ .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٠ .

و اليوم الآخر ، يؤمن بدين قتيله ، وبدين كان يعاديه ويحاربه، ورب كلمة مؤمنة مخلصة ، صنعت العجائب ، وهزمت الجيوش، و فتحت البلاد (١) .

(١) القصة رواها البخارى فى باب غزوة رجيع ، من كتاب المغازى ، و ابن هشام ، ق ٢ ص ١٨٧ .

رسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا جاءك قريب أو صديق ، و قال : إنى مسافر إلى الوطن ، و سأقابل أباك ، فهل توصى بشيء ؟ وهل لك رسالة إليه أحملها منك ، و أبلغها إليـــه ؟ فلا تشك أنه سيجتمع بأبيك ، و ربما يسأل أبوك عنك خبراً ساراً ، وبشرى صحتك ، فتقول : إقرأ على والدى منى السلام ، وقـــل له : إن ابنك بخير ، وكما تحب من صحة وسرور .

كذلك كان المسلمون يعتقدون أن الموت جسر إلى الآخرة ، و كل من عبر هـــذا الجسر من المسلمين وصل إلى الآخرة ، واجتمع هنالك برسول الله صلى الله عليه و آله وسلم و تشرف بزيارته ، و لابد أن رسول الله صلى الله عليـــه و آله وسلم سائل عن أمته .

و يمكن أن لا يصل قريبك أو صديقك إلى الوطن لمانع

أو حادثة ، أو يصل إلى الوطن ، ولا يجتمع بأبيك ، و لكن المسلمين ما كانوا يشكون فى وصول الميت إلى عالم الآخرة ، و اجتماع الشهيد برسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

زحف المسلمون إلى الشام ، و كان النبي صلى الله عليه و آله وسلم أخبرهم ، « لتفتحن كنوز كسرى وقيصر » و قد وعدهما الله بالنصر ، و قال : « إن جندنا لهم المنصورون ، و إن جندنا لهم الغالبون » و كانوا واثقين بالنصر و الفتح ، و كذلك كان ، فقد فتحوا مدينة بعد مدينة ، و هزموا جنداً بعد جند .

و جاء رجل يوم اليرموك إلى أبي عبيدة رضى الله عنه ، - قائد المسلمين - فقال : إنى قد تهيأت لأمرى أى للشهادة ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم .

قال أبو عبيدة : نعم ! تقرئه عنى السلام ، و تقول : يا رسول الله صلى الله عليك و آلك و سلم ! إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً (١) .

---

(١) البداية و النهاية لابن كثير ، ص ١٢ ، ج ٧ .

الغُرم بدل الغُنم

كان سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يأخذ من بيت المال - و هو خليفة المسلمين - و حاكم دولة واسعة الأطراف تشمل الجزيرة العربيـة ، و تتوغل فى بلاد الشام غزواً و فتحاً ما يكفى لقوته وقوت أسرته الصغيرة ، وكان تاجراً قبل أن يتولى الخلافة ، و شغلته الخلافة عن التجارة ، فاضطر إلى أن يأخذ من بيت المال ما يعوله (١) وأهله ، لأنه لا يجد وقتاً للتكسب و الارتزاق ، و ذلك فى صالح المسلمين ، و الانشغال بمهمات الخلافة ، و إدارة البلاد .

وكان الذى يأخذه من بيت المال يكفى لاقامة صلبه وصلب عياله من طعام ، من خبز و إدام ، لا تجد أم عياله سبيلا إلى التفنن فيه ، و التوسع فى المطاعم كما يفعله من بسط الله له فى

---

(١) عال الرجل عياله ، كفاهم معاشهم .

الرزق من أغنياء الأسرة و أهل البلد ، و كانت الأسرة أحسن حالا و أنعم بالا حين كان سيد الأسرة — الصديق — يرتزق بالتجارة .

وكان لأبى بكر أولاد صغار يعتمدون على ما يقيم صلبهم، و يسد رمقهم من طعـــام بسيط متشابه ، لا يجدون ما يشبع رغبتهم من حلوى و فاكهـــة كمن كان فى سنهم من أبناء أسر المدينة الذين أغناهم الله و وسع لهم فى الرزق ، و كانت لآبائهم حدائق ، و تجارات ، و مزارع .

شعرت بذلك الأم الحنون و أرادت أن تحلى يوماً أفواه الأبناء الصغار و تسلى بالحلوى ، و هى بشر من البشر ، فقالت لزوجها العظيم أن تسمح لها بذلك يوماً من الأيام ، و يزيد فى راتبها من بيت المال، فقال : إن بيت مال المسلمين - وفيهم فقراء وأهل خصاصة (١) - لا يتسع لاشباع الرغبات ، والتنوع فى المطاعم و المشارب ،

---

(١) فقر و ضيق .

فقالت : « لو استفضلت (١) من نفقتنا عدة أيام وبقيت لنا بقية ، هل هنالك مانع من أن نشترى بها حلوى ؟ .

قال : لا بأس بذلك ، وهذا يرجع إلى قدرتك وجهدك .

فاستفضلت زوج أبى بكر الصديق من نفقتها من عدة أيام ما يصلح لان يشترى به حلوى ، وقدمت الدريهمات إلى أبى بكر ، و قالت هاك دريهمات ، تستطيع أن تشترى به لنا حلوى .

و لم يكن من شأن الصديق إلا أنه رد الدريهمات إلى بيت المال ، و قال : لمن يلى أمره .

قد تحقق لدينا أن أسرتنا تستطيع أن تعيش و تقوت أعضاءها بأقل مما تتقاضى من بيت المال من الدريهمات ، فأسقط من نفقتنا كل يوم بقدر هذه الدريهمات ، فانها كانت زائدة على حاجاتنا ، و ليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الخليفة وتتوسع به فى المطاعم .

و هكذا كان ، فنقص من راتب كل يوم بقدر هذه

---

(١) أبقيت و ادخرت شيئاً من النفقة .

الدريهمات (١)، وكان من حظ الأسرة السعيدة الصالحة ـ التي كان يحكم سيدها بلاداً واسعة ، و تأتيه الغنائم و الثروات من أطراف كثيرة ـ الغرم بدل الغنم ، ولم تستطيع أن تحقق رغبتها فيما اشتهته من حلوى ، بل اضطرت إلى أن تقتنع براتب أقل مما كانت تناله كل يوم من بيت المال ، و رضيت السيدة زوج الصديق بمـا فعله زوجها العظيم و لم تعتبره غرماً و خسارة ، وصدق الله العظيم : « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات (٢) » .

و ضرب سيدنا أبو بكر مثالا لمن يلي أمر المسلمين ، و يفضل الزهد و القناعة على التوسع فى المطاعم و المشارب ، و قضاء حاجات النفس ، و يرجح الآخرة على الدنيا ، « و ما عند الله خير و أبقى » .

و رضى الله عن أبي بكر وعن الخلفاء الراشدين المهديين .

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٤٢٣ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٦ .

رحلة سيدنا عمر بن الخطاب رضـ
إلى بيت المقدس

استمر الفتح فى بلاد الشام فى خلافــة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حتى وصل إلى القدس ، و فيه المسجد الأقصى المبارك .

هنالك طالب المسيحيون الذين كانوا يحكمون بلاد الشام والروم ، أن يأتى خليفة المسلمين بنفسه ، و يكتب صك الصلح بيده فيسلموا إليه مفاتيح المسجد الأقصى المبارك ، لأن الأمر ليس بهين ، و ليس القدس كسائر المدن و البلاد ، بل له شأن ليس لبلد آخر ، و هو الذى بناه نبي الله سليمان عليه السلام ، و صلى فيه الأنبياء بعده ، فلا بد أن يسلم - إن كان لا بد من التسليم - إلى ولى الأمر و خليفة المسلمين رأساً .

و كتب قائد جيوش المسلمين سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه بذلك إلى أمير المؤمنين ، و قال : إن فتح بيت المقــدس

متوقف على قدومه ، و استشار سيدنا عمر رضى الله عنـــه فى ذلك الصحابة رضى الله عنهم شأنه فى القضايا الكبيرة - وتوقف بعض الصحابة فى أمر رحلته ، و أشاروا عليه بالامتناع إرغاماً لأنوف المسيحيين ، و لكن سيدنا علياً رضى الله عنـــه أشار عليه بالتوجه إلى القدس لمـــا فى ذلك من شرف و سعادة ، و تخفيف على المسلمين .

وقبل عمر رضى الله عنه ذلك واستعد للرحلة ، واستخلف علياً رضى الله عنه على المدينة و توجه إلى الشام .

و ننظر كيف سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، و هو الذى يهابه ملك الروم و ملك فارس ، و اسمه يملأ القلوب و الآذان هيبـــة و رعباً ، وكان أقل منه منزلة وأصغر منه نفوذاً وحكماً ، إذا سافر إلى بلد فى إمارته و حكمه ، فضلا عن بلاد بعيدة ودولة كانت فى حكم الآخرين زماناً طويلا ، تشخص فيـــه الأبصار إلى رؤية الحاكم الفاتح و الاطلاع على موكبه ومظاهر عظمته ، ولا تزال أخبار هذه الرحلات الملوكيـة تشغل مكاناً كبيراً فى كتب التاريخ والسير ، و يتحدث بها الناس

فتملأ القلوب إكباراً و إجلالا ، و لكن الأمر كان هنا على خلاف القياس و التجارب التاريخية الكثيرة المتكررة .

و إلى القارئ العزيز خبر هذه الرحلة .

تقدم سيدنا عمر رضى الله عنه إلى بلاد الشام على جمل لونه لون الرماد ، تلوح صلعته (١) للشمس رجلاه بين شعبتى رحله بــلا ركاب ، وطاؤه كساء ذو صوف ، و هو ركابه إذا ركب ، و فراشه إذا نزل ، حقيبته (٢) نمرة أو شملة محشوة ليفاً ، هى حقيبته إذا ركب ، و وسادته إذا نزل ، عليـه قميص من كرابيس (٣) قد رسم و تخرق جنبه ، و ليس عنده قميص آخر .

قال ادعوا لى رأس القوم فدعوه له ، فقال اغسلوا قميصى وخيطوه ، و أعيرونى ثوباً أو قميصاً ، فأتى بقميص كتان (٤) ،

---

(١) الصلعة مقدم الرأس .

(٢) الحقيبة ، الخريطة التى يضع المسافر فيها الزاد و نحوه .

(٣) الكرابيس الثياب الخشنة .

(٤) الكتان نبات له زهر أزرق تنسج منه الثياب .

فقال ما هذا ؟ قالوا كتان ! قال : ما الكتان ؟ فأخبروه ، فنزع قيصه ، فغسل و رقع و أتى به ، فنزع قيصه و لبس قيصه .

وقال له رئيس القوم (المسيحيين) أنت ملك العرب ، و هذه بلاد لا تصلح بها الابل ، فلو لبست شيئاً غير هذا و ركبت برذونا (١) لكان ذلك أعظم فى أعين الروم ، فقال : نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فلا نطلب بغير الله بديلا (٢) .

وهكذا كان شأن سيدنا عمر رضى الله عنه ـ أمير المؤمنين و خليفة المسلمين ـ الذى كان اسمه يطير نوم الملوك الكبار ، و دوى فتوحه يملأ الآفاق ، و هكذا كانت رحلته من المدينة إلى القدس ، يمر فيها بمدن كثيرة بلغت أوج المدنية و الرقى ، و ترنو إليه العيون و تشخص إليه الأبصار .

و صدق الله العظيم :

« إن العزة لله و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون » .

---

(١) البرذون : التركى من الخيل .

(٢) البداية و النهاية لابن كثير .

قدر الشئ حق قدره والجزاء الأوفى عليه

إن كلا منا يقدر الفعل الحسن و يعجب به و يشكر صاحبه عليه، يعجب بالسخاء ، وخدمة المجتمع ، وإغاثه الملهوف و إطعام الجائع ، و تسلية المكروب ، و قد يثنى على صاحبه و يعترف بفضله و يقول : أحسنت ، جزاك الله خيراً !

و لكن الأعمال تأتى على مستوى الرجال و على قدر هممهم ، وعلى قدر ما طبعهم الله عليه ، من حب الخير ، وقدره حق القدر ، و الجزاء الأوفى عليه ، و الاستهانة بالمال والعطاء فى سبيله ، وصدق الشاعر : « وتأتى على قدر الكرام المكارم ».

كلكم تعرفون الحسن بن على بن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم و ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان أشبه ـ أو من أشبههم ـ برسول الله صلى الله عليه و آله وسلم خلقاً و خلقاً ، و قد

قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم فى حقه : « إن ابنى هذا سيد » .

و إليكم حكاية تدل على علو همته و قدر الفعل الحسن حق قدره و الجزاء الأوفى عليه .

كان الحسن رضى الله عنه مارا فى بعض حيطان (١) المدينة فرأى أسود بيده رغيف ، يأكل لقمة و يطعم الكلب لقمة ، إلى أن شاطره الرغيف (٢) .

و كان منظراً غريباً ، و شيئاً غير مألوف ، فان كثيراً من الرجال ينفردون بالطعام و يستأثرون به ، و لعل الأسود كان هذا قوت يومه لا يجد غيره ، و لكنه شاطر الكلب الرغيف ، رغم شدة حاجته إليه ، و كان لا بد أن الكلب كان له متسع من راتب قرره له صاحبه ، أو يجد ما يشبعه فى الحديقة ، أو من فتات مائدة صاحبه .

وكان منظراً غريباً استرعى انتباه سيدنا الحسن و استوقفه .

---

(١) البساتين و الحدائق .

(٢) جعل نصفه له و نصفه للكلب .

و جعله يسأل العبد الأسود :

ما حملك على أن شاطرت الكلب و لم تغابنه (١) فيه بشيء ؟ .

و من المعلوم أنه لم يكن عليه رقيب ، و لا للكلب لسان يشكو به ، و لا له عليه دين أو حق يطالبه به .

و كان الجواب « استحت عيناى من عينيه أن أغابنه !

و قد أثار هذا المنظر و هذا الجواب الإعجاب فى نفس سيدنا الحسن وأثار فيها المروءة التى كان له فيها النصيب الأكبر ، و الخلق الكريم الذى ورثه عن جده الذى يقول الله عنه « إنك لعلى خلق عظيم » فقال للأسود .

غلام من أنت ؟

قال الأسود ـ غلام أبان بن عثمان !

قال الحسن ـ و الحائط ؟

قال العبد ـ لأبان !

فقال له الحسن : أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك .

(١) لم تخدعه و لم تغلبه ، و لم تنقصه .

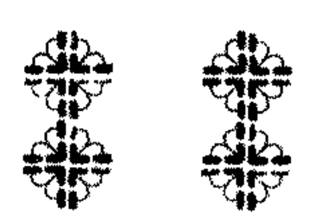
ثم فاشترى الغلام و الحائط ، و كلنا نستطيع أن نقدر ، ماذا بذله فى شراء الغـــلام ، و الحائط من المال ، و ما كلفه دفع الثمن لهذه السلعة الغالية .

و جاء إلى الغلام فقال له : قد اشتريتك !

فوقف الغلام قائماً ، وقال : السمع والطاعة لله و لرسوله و لك يا مولاى !

قال الحسن : و قد اشتريت الحـــائط و أنت حر لوجه الله ، و الحائط هبة منى إليك (١) .

و لا تسأل عن دهشة الغلام ، و ما غمره من سرور ، فقد انقلب فى دقائق حراً ، يملك هـذا الحائط الكبير الثمين ، « و عن البحر حدث و لا حرج » .



(١) تهـــذيب تاريخ دمشق الكـــبير لابن عساكر ج ٤ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

زهد أكبر حاكم في عصره

كان سيدنا عمر بن عبد العزيز ـ الخليفة الأموى الراشد ـ أكبر حاكم فى عصره ، يحكم الشام و مصر والعراق ، و الجزيرة العربية و إفريقية الشمالية الغربية و إيران و خراسان ، و وصلت مملكته إلى حدود الهند ، لما استخلف خرج من ماله و عقاره ، و رده إلى مال المسلمين ، و وضع حلى زوجته فى بيت المال ، و بلغ من الزهد و الشظف (١) فى الحياة ، و التقشف (٢) فى المعيشة مبلغاً يعجز عنه الزهاد فضلا عن الملوك و الأمراء ، كان يتأخر فى بعض الأحيان عن الخروج إلى صلاة الجمعة انتظاراً لقميصه أن يجف ، و كانت نفقته اليومية لا تزيد على درهمين ، و كان يتورع عن تسخين الماء على مطبخ العامة ،

---

(١) الضيق و الشدة .

(٢) تقشف : ساءت حاله و رثت حياته وضاق عيشه .

كان يطفئ الشمعة التى زيتها من بيت المال إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ، فقال : كيف أنت يا أمير المؤمنين وكيف عيالك ؟ أطفأ الشمعة و طلب شمعة يملكها ، أو رد على سؤال صديقه فى الظلام .

دخل مرة فى بيته ليزور أهله و يحييهم ، فرأى أن كل بنت من بناته إذا واجهته و حدثها ، تضع يدها على وجهها و حدثت ، فسأل عن السبب فى ذلك ، فاعتذرت إليه وحدثته أنها ما وجدت فى البيت ماتأكله إلا عدساً وبصلا، فهى تخاف أن تصل إليه رائحتها ، فبكى و قال يا بناتى ما ينفعكن أن تمشين الألوان و يمر بأبيكن إلى النار ؟ فسكتن و رضين بهذه الحياة الزاهدة المتقشفة و أبوهن أكبر حاكم فى ذلك الزمان ، يتنعم عماله و كثير من أهل بلاده بالأطعمة اللذيذة و الأقمشة الجميلة الغالية ، و الحياة الرخية الناعمة .

ولم يكن تورعه مقتصراً على ذاته بل كانت سياسة عامة ، كان يطلب من رجال دولته و عماله أن يكونوا متورعين أشحة على أنفسهم أسخياء على المسلمين ، يعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز

أن يجرى فى غير عروقهم ، و لا يرى أن يضيع فى الكماليات و الشكليات .

طلب أحد عماله من الخليفـــة قراطيس يكتب عليها فى مصالح ولايتـــه فأجاب : « إذا جاءك كتابى هـــذا فأرق القـــلم ، و أجمع الخـــط ، و أجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة ، فانه لا حاجـــة للمسلمين فى فضل قول أضر ببيت مالهم ، و السلام عليكم » :

و شكا إليه أحد العمال ما أصاب بيت المال من نقص و خسارة ، لسبب إسقاط الجزية (١) عن الذين كانوا يسلمون ـ فانه لا جزية على المسلمين ـ فأجاب .

« إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم داعياً إلى الاسلام و لم يبعثه جابياً (٢) .

---

(١) الجزية ما لزم الكافر من مال لأمنه و استقراره تحت حكم الاسلام و صونه .

(٢) جبى يجبى جباية ، الخراج ـ جمعـــه ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم .

لا حاجة إلى ذكر اسمى

إن كل رجل منا - عفا الله عنا وعن المسلمين - إذا أتى بمآثرة (١) أو قام بعمل يسترعى الانتباه ، و يثير فى النفوس الإعجاب و الإكبـار - يحب أن يعرف و يمدح و يذكر اسمه و يحفظ ، و هذه طبيعة بشرية لا يلام أحد عليها .

و لكن شأن المسلمين الذين تخرجوا فى المدرسة النبوية ، و نشأوا فى أحضان التعاليم الاسلامية وظلالها ، كان شأنهم غير هذا ، نشأت وصدرت منهم عجائب من الإخلاص ، و الابتعاد عن الأنانية ، و حب الشهرة و المدح ، لا تزال موضع دهشة المؤرخين و المطالعين .

و إلى القارىء العزيز حكاية صغيرة ، من هذه الحكايات الكثيرة الكبيرة .

لما هبط المسلمون المدائن - و هى عاصمة المملكة الساسانية الفارسية - (إيران القديم) و فتحوا البلد و غنموا غنائم كانت أعظم ثروة فى ذلـك الزمان ، و كان العرب رعاة الابل ،

---

(١) عمل جليل يحمد عليه .

و سكان بيوت الوبر (١) أقبل رجل بحق معـــه إلى قائد الجيش الإسلامى و الأمير فدفعه إليه .

و كان عنده رجال ، فاستغربوا من ما كان يحمله هذا العربى الفقير من ثروة وطرف ، فقالوا : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعـدله ما عندنا ، و لا يقاربه ، فقـــالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ .

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به !

فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا من أنت ؟

فقـــال : لا والله لا أخبركم لتحمدونى ، و لا غيركم ليقرظونى ، و لكنى أحمد الله و أرضى بثوابه .

فأتبعوه رجلا حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه ، فاذا هو عامر بن عبد قيس (٢) .

و صدق الله العظيم :

« إن تخفوا شيئاً أو تبدوه يعلمه الله » .

---

(١) الوبر : هو للابل و الأرانب ونحوها كالصوف للغنم .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ .

البطل المجاهد والمسلم الرحيم الكريم

كان الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (١) معجزة من معجزات الاسلام الخالدة ، و آية من آيات الله الباهرة ، هو الذي رد غارة الصليبيين (المسيحين الاوربيين) على أعقابها و استرد بيت المقدس و فلسطين و الشام من حكم الصليبيين المعادين للاسلام ، و أنقذ الجزيرة العربية و البلاد المقدسة من خطر استيلاء أعداء الاسلام الاجانب .

بعد معركة حطين (٢) ١٧ ربيع الاول سنة ٥٨٣هـ سرعان

---

(١) ولد السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٣٢، و توفي في سنة ٥٨٩ هجرية .

(٢) كانت معركة مصيرية حاسمة قضت على دولة فلسطين الصليبية كانت في ١٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، وفتح الله للسلمين فيها فتحاً مبيناً .

ما حانت الساعة المباركة التى كان يتلهف لها السلطان ، و يسمو إليها و يهفو منذ أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ، يقول القاضى ابن شداد :

« و كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال » (١) .

و فى ٢٧ من رجب من سنة ٥٨٣ هـ دخل السلطان بيت المقدس ، و بعد تسعين سنة عادت هذه القبلة الأولى — التى صلى فيها محمد صلى الله عليـــه و آله وسلم بالأنبياء عليهم السلام فى ليلة الاسراء — إلى حضانة الاسلام و وصاية المسلمين ، و كان من تقدير العزيز العليم أن السلطان دخل بيت المقدس فى نفس التاريخ الذى أكرم الله فيه النبى صلى الله عليه و آله وسلم بالمعراج .

و يقول ابن شداد فى موضع آخر :

« و كان السلطان كثير المروءة ، ندى اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، و كان يكرم الوافد عليه ، و إن كان كافراً . . . و لقد رأيته و قد دخل عليـــه

---

(١) النوادر السلطانية : ص ٢١٣ .

صاحب « صيدا » بالناصرة فاحترمه و أكرمه ، و أكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه » (١) .

و كان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع للمظلوم و يرثى له ، و يجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكى ابن شداد فى كتابه فيقول :

« و لقد كنت راكبا فى خدمته فى بعض الأيام قبالة الافرنج ، و قد وصل بعض اليزكية و معه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء ، متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكى : إن هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك ، و قد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتى و سرقوا بنتى ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لى المملوك : السلطان هو أرحم ، و نحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجونى

---

(١) النوادر السلطانية : ص ٢٤ .

إليك ، وما أعرف ابنتى إلا منك ، فرق لها و دمعت عينـــه ، و حركته مروءته ، و أمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها و يدفع له ثمنها و يحضرها ، و كان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعـــة حتى وصل الفارس و الصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليه ، فخرت إلى الأرض تعفر وجهها فى التراب ، و الناس يبكون على ما نالها ، وهى ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها و حملت حتى أعيدت إلى عسكرهم » (١) .

« و كانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع و العشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمس مائة » .

يقول ابن شداد :

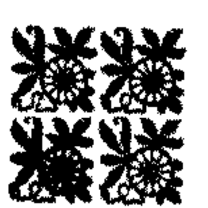
« إن السلطان لم يخلف فى خزانته من الذهب و الفضـــة إلا سبعة و أربعين درهما ناصرية ، و جرما واحداً ذهباً ، ولم يخلف ملكا ، ولا داراً ، ولا عقاراً ، ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، و لا شيئاً من أنواع الأملاك » (٢) وما أمكننا

---

(١) النوادر السلطانية : ص ٢٦ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦ .

أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى تبنت به الطين . . . وجميع ما احتاج إليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه (١) .



(١) النوادر السلطانية : ص ٢٥١ .

جواب كان التسبب في إسلام مآت ألوف من الناس

لعلكم سمعتم — أو ستقرأون فى كتب التاريخ قريباً — خبر غارة التتار على العالم الاسلامى ، فى القرن السابع الهجرى ، فكانت فتنة عظيمة ، و محنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه هزاً عنيفاً ، فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها أبيدت و خربت ، ولم يكن فى العالم الاسلامى — على اتساعه ، و كثرة دوله و حكوماته — من يستطيع أن يواجه هذا البلاء العظيم ، و غلب على الناس اليأس و التشاؤم ، حتى سار المثل « إذا قيل لك : إن التتر انهزموا فلا تصدق » وكفى لتمثل هذا الزحف الوحشى المبيد لكل ما عرض فى سبيله ما قاله مؤرخ أوربى عن قائد هذا الزحف « جنكيز خان » .

« إنه محا فى طريقه كل مدينة من الوجود ، غير مجرى النهار ، و ملأ الصحارى باللاجئين المذعورين المشرفين على الموت ،

إنه لم يبق بعد مروره بالمناطق التى كانت آهلة بالسكان في يوم ما من الأيام ، أى حى من الأحياء ، إلا الكلاب ، و الذئاب ، و الحداة ، و السنور (١) .

و كان كل شئ يقبله القياس و يستطيع أن يتكهن (٢) به الناس ، إلا أنهم سيسلمون و يدينون بدين المفتوحين الذين لم يكن شعب ولا رجال أذل فى عيونهم من المسلمين .

و لكن تحقق ما كان يعتبر مستحيلا — و كان ذلك بتوفيق الله تعالى بفضل الدعاة المخلصين ، و العلماء الربانيين — و إليكم حكاية من حكايات هؤلاء الربانيين الكثيرة .

كان تغلق تيمور خان ابن ملك كاشغر ، و كان ولى العهد ، لم يتوج بعد ، ولم يبايع بالولاية ، قد كان له حمى (٣) يقتنص فيه لا يدخله أحد غيره ، و غير من يرافقه من الخدم و الحشم

---

(١) الأستاذ هيرلد ليمب فى كتابه « جنكيز خان » بالانجليزية ، ص ١٢ .

(٢) يتنبأ به مقدما .

(٣) من الأرض ما يحمى و يدافع عنه .

الذين يساعدونه فى القنص ، و كان الملوك فى ذلك الزمان غيارى على ما يتخذونه من مجالات قنص أو صيد ، و يحمونها من أطرافها ، غيرتهم على شرفهم و كرامتهم ، فكانت هذه الأرض ممنوعة لغير ولى العهد ، و فرقة الصيادين من جليسيه ، لا يطمع فيها طامع ، ولا يدخلها داخل .

ولكن الله قدر ما غير مستقبل الأسرة الحاكمة فى تركستان ، و من كان يتبعها من هذه الجماعة المدوخة للعالم ، و نقلهم من الحمى المخصص للصيد ، و الغيرة عليه إلى حمى السعادة الأبدية ، و حراسة الاسلام و المسلمين ، و إنشاء الحكومات الكبيرة الواسعة التى تدين بالاسلام ، و ترفع رايته .

و إليكم حكاية من حكايات هؤلاء الربانيين الكثيرة التى يرجع إليهم الفضل فى إقبال هؤلاء التتر الوحوش على الاسلام .

خرج الشيخ جمال الدين من مدينة بخارى وكان معه جماعة من التجار ، و لم يتفطنوا لهذه الأرض المحمية لصيد ولى العهد و حاشيته ، فدخلوا فيها على غفلة و اطلع على ذلك الحرس الملكى ، و أمر الامير بأن توثق أيديهم و أرجلهم ، و أن يمثلوا

بين يديه ، و كان التتار ينظرون إلى الفرس (الايرانيين) بعين الازدراء و الاحتقار ، و جرى بين ولى العهـــد ، و الشيخ جمال الدين الحوار الآتى :

قال ولى العهد فى غضب : كيف جرأتم على دخول هذه الأرض ؟

قال الشيخ : نحن غرباء، دخلنا فيها على غفلة وجهل لا نعلم أننا نجوس أرضا محرمة .

و سأل ولى العهد : من أى جنس أنتم ؟

قالوا : نحن من الفرس .

قال الأمير : إن الكلب أغلى من أى فارسى .

و هناك ألهم الله الشيخ الجواب الذى كان قدر له أن يفتح الفاتحين ، و يخضع الغالبين ، و يشرح صدر الأمير للايمان بهذا الدين .

قال الشيخ : نعم ! قد كنا أخس من الكلب ، و أبخس ثمنا منه ، لو أننا لم ندن بدين الحق .

احتار الأمير بذلك الجواب ، و أمر بأن يقـــدم ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد .

ولما خلا به سأله ما ذا يعنى بهذه الكلمات وما ذلك الدين ؟

فعرض عليه الشيخ قواعـد الاسلام فى غيرة و حماس ، انفطر لها قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، و صور لهم الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته و تصوراته .

و لكنه قال : إذا اعتنقت الاسلام الآن لا استيطع أن أهدى رعاتى إلى الصراط المستقيم ، فتمهلنى قليلا فاذا آلت إلى مملكة أجدادى فعد إلى .

و عاد الشيخ جمال الدين إلى بلده حيث مرض مرضا شديداً ، فلما أشرف على الوفاة ، قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكا عظيماً فلا تنس أن تذهب إليه و تقرأه منى السلام ، ولا تخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى .

ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان ، وكان قد توج ، و تربع على عرش امبراطورية آبائه .

ولكن كيف يجد هذا الفارسى الغريب السبيل إليه و يظفر بالمثول بين يديه ؟

لجأ رشيد الدين إلى حيلة طريفة شريفة فصار يؤذن بجوار

البلاط الملكى ، و ذات يوم فى الصباح الباكر قرع الأذان سمع الأمير و أقلق نومه و أثار غضبه ، فسأل من هذا الجرىء الجهورى الصوت الذى لا يحتفل براحة الملك و لا يحسب لها حسابا ؟

أخبر بأنه رجل فارسى غريب ينادى بأعلى صوته وفقاً لدينه فيؤذن و يصلى ، فأمر باحضاره و مثوله بين يديه .

و هناك بلغ رشيد الدين رسالة أبيه و تذكر تغلق تيمور وعده ، و قال : « حقاً ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، و لكن ما بال الشيخ الصالح لماذا لم يحضر هو بنفسه ؟

و أخبره الشيخ رشيد الدين بأنه فارق الحياة و انتقل إلى الدار الآخرة ، سمع ذلك الملك فى مزيج من الحزن و السرور ، و أقر بالشهادتين و أسلم ، و استقبل الملك الأمراء واحداً بعد واحد ، يعرض عليهم الاسلام فأسلموا و أشرقت شمس الاسلام ، ومحت بنورها الظلام ، و دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

و هكذا انتشر الاسلام فى فروع التتار الأخرى ، والأسر المالكة الحاكمة ، بفضل دعاة الاسلام المخلصين و العلماء الربانيين ،

و الوعاظ المؤثرين ، و كان كما يقول المؤرخ الانجليزى الكبير .

«نهض الاسلام من تحت أنقاض عظمته الاولى و أطلال مجده التالد ، و استطاع بواسطة الدعاة المسلمين أن يجذب أولائك الفاتحين الذين قد أنفدوا جهدهم فى اضطهاد المسلمين ، و يحملهم على اعتناقه (١) .

ولا يزال جواب الشيخ جمال الدين الملهم رداً على سؤال تغلق تيمور ، له الفضل الكبير فى انتشار الاسلام فى فرع كبير من فروع التتار الوحشيين ، و رب كلمة تنبع من إخلاص و إيمان يقترن بها توفيق الله تعالى ، و أمره أكبر تأثيراً و أكثر تسخيراً من جيش كثيف ، و سلاح كثير ، و قتال طويل .



---

(١) البروفيسور آرنلد فى كتاب « الدعوة إلى الاسلام » ص ٢٢٧ .

فمن عفا وأصلح فأجره على الله

قرأنا حكايات و أخباراً تتصل بالعهد النبوى — على صاحبه الصلاة و السلام — و بعصر الصحابة و عهد الخلافة الراشدة ، وما تبعه إلى عصر كانت فيه كلمة الله هى العليا و سيرة الرسول و تعاليمه هى الأسوة ، و كان الخير فيه غالباً ، و منار الدين عالياً .

و لكن شجرة الاسلام لم تزل تثمر ، و خليتـــه لم تزل تعسل ، ونحكى لكم حكايتين من حكايات تاريخية و روائع إيمانية و خلقية ، يرجع عهدها إلى القرن الثالث العشر الهجرى ، حين قام الامام السيد أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١—١٢٤٦هـ) بتربية جماعة فى الهند — البعيدة عن مركز الاسلام ، الممتحنة بمحن دينية عقائدية خلقية ، وحكومات ضعيفة منحرفة — على أساس التقوى و العقيدة الصحيحة ، و اتباع السنة و الشوق إلى الجهاد و الشهادة ، و الدعوة إلى الله ، و اجتهد و جاهـــد

لا نشاء حكومة إسلامية على منهج الخلافة الراشدة لتطبيق أحكام الشريعة على النفس و الأهل ، و الحياة العامة و المجتمع (١) .

نلتقط من هذا التاريخ المليئ بعجائب الانقلاب النفسى ، و التطور الاسلامى حكايتين ، هذه إحداهما .

تخاصم خادم يقال له « لاهورى » وهو رجل متواضع المظهر ، يخدم خيل المجاهدين و يعلفها مع رجل اسمه عنايت الله ، له هيئة و مكانة عند السيد الامام ، وهو من رفقته السابقين ، و أخذت الرجل حدة ، وكز لاهورى وكزة وقع منها على الأرض ، و صار يتقلب من الألم .

اتصل الخبر بالسيد الامام ، و اطلع على القضية فعنف عنايت الله خان و عذله عذلا شديداً ، و قال لعلك اجترأت على هذا لدالتك و مكانتك منى و حقارة الرجل و ضعته ، فلا يغرنك هذا ، فأنت و لاهورى سواء عندى ، لا فضل

---

(١) راجع للتفصيل كتاب « إذا هبت ريح الايمان » للكاتب ، طبع مؤسسة الرسالة بيروت ، و دار القلم ، الكويت ، و دار عرفات الهند .

لأحـــد على الآخر ، و قد جاء الناس جميعاً و اجتمعوا هنـا للدين فقط .

و أحال أمرهما على قاضى العسكر وقال له : لا يأخذك فيهما جنف (١) أو مداهنـــة ، و أحكم بينهما بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما .

كان الأمر جليا واضحا ، فكان اللاهورى أن يقتص من عنايت الله ، و يكزه كما وكزه ، فان الجروح قصاص ، و لكن خاف الناس الشر و تخوفوا أن تكون للقصاص عاقبة لا تحمد ، وعسى أن تأخذ عنايت الله الحدة فيثور عليه و يبطش به ثانية ، و يحدث فتنة الناس فى غنى عنها .

اجتهد الناس أن يتنازل لاهورى عن حقه ، و يسامح غريمه حسبة لله تعالى ، و تفادياً من الشر ، و أراد القاضى أن يقنعه ، و اجتهد الناس أن يفهموه ، فقالوا له : إذا عفوت عن صاحبك ، و تنازلت عن حقك كان لك عند الله أجر عظيم ، « فمن عفا و أصلح فأجره على الله ، ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الامور » (٢) .

---

(١) ميل عن العدل و الحق .

(٢) الشورى : ٤٢ .

أما لو أخذت حقك كنت و صاحبك سواء ولم تستحق الأجر و الشكر .

قال لاهورى فى بساطة : ولو أخذت بحق و اقتصصت من صاحبي أكان على وزر ؟ قالوا لا ! بل و الله يقول : « و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهـــم من سبيل » (١)

قال لاهورى : إذن آخذ حق و اقتص من صاحبي .

هنالك يئس الناس و قطعوا الرجاء و أوقف القــاضى عنايت الله أمام لاهورى وقال للاهورى : دونك الرجل فاضربه كما ضربك و اقتص منه .

قال لاهورى : أمن حق أن أضربه كما ضربنى و اقتص منه ؟

قال القاضى نعم .

و اضطرب الناس و أيقنوا أن لاهورى ضاربه و مقتص منه .

قال لاهورى : اشهدوا أيها الناس أن القاضى قد أعطانى حق ، و مكننى من غريمى وقد قضى ما عليه ، و ها أنا ذا متمكن من خصمى لا يمنعنى من القصاص أحد ، ولا يحول بينى و بينه شئ ، ولا أخاف أحداً .

---

(١) الشورى : ٤٢ .

و لكن اشهدوا أيها الاخوان أنى عفوت عن أخى ، و تركت حق حسبة لله تعالى و ابتغاء رضوانه .

تقدم لاهورى و عانق عنايت الله خان و ضمه إلى صدره و صافحه ، وهتف الناس مرحى مرحى ، و حياك الله يا لاهورى و بياك ، فقد عملت عمل الرجال ، و صنعت صنع الأبطال .

و هكذا عمل « لاهورى » بقوله تعالى : « و الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون و جزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا و أصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » (١) .



---

(١) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

في اليوم الثاني من شهر مايو سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ) جلس (ايدورس) القاضي الانجليزي على كرسي في محكمة « أنباله » (١) و جلس بجانبه أربعة من المساعدين المستشارين من وجهاء البلد ليروا رأيهم في القضية ، و وقف أمام هؤلاء أحد عشر رجلا تنطق وجوههم و ملامحهم بشرفهم و براءتهم ، و لكنهم اعتبروا من كبار الجناة و المجرمين ، فانه يقال إنهم دبروا مؤامرة ضد الحكومة الانجليزية في الهند ، و كانوا يساعدون أنصار السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد و المجاهد الجليل الشيخ إسماعيل الشهيد على حدود أفغانستان بالمال و الرجال يرسلونها سراً من داخل البلاد بحكمة عجيبة ، و قد وضعوا

---

(١) مدينة كبيرة في شرق بنجاب و كانت ثكنة انجليزية و مركزاً إداريا كبيراً في العهد الانجليزي .

لمراسلاتهم لغة رمزية ، و كانوا يجمعون إعانات من رعايا الانجليز أنفسهم و يرسلونها إلى مركز الثوار ، عثرت على ذلك الحكومة بوشاية جندي مسلم فى جنود الانجليز ، و ألقت القبض عليهم فى « بتنه » و « تهانيسر » و « لاهور » (١) و حاكمتهم ، و هذا يوم يصدر فيه الحكم عليهم .

غصت المحكمة بالزائرين فقد كانت القضية حديث المجالس ، و حان صدور الحكم فشخصت الأبصار ، و أصغت الآذان ، و اضطربت القلوب ، و خفتت الأصوات ، و إذا بالقاضى يتكلم فى صوت الغضبان و يخاطب شاباً جميلا قوياً يظهر أنه ربيب نعمة و سليل شرف :

« إنك يا جعفر رجل عاقل متعلم ، ولك معرفة حسنة بقانون الدولة ، و أنت عمدة بلدك و من سراته ، و لكنك بذلت عقلك و علمك فى المؤامرة و الثورة على الحكومة ، و كنت واسطة فى انتقال المال و الرجال من الهند إلى مركز الثوار ، و لم تزد إلا أن جحدت و عاندت ، و لم يثبت أنك

(١) مدن فى بلاد الهند .

كنت مخلصا و ناصحاً للدولة ، وما أنا ذا أحكم عليك بالإعدام و مصادرة جميع ما تملكه من مال و عقار ، و لا يسلم جسدك بعد الشنق إلى ورثتك ، بل يدفن فى مقبرة الأشقياء بكل مهانة ، و سأكون سعيداً مسروراً حين أراك معلقا مشنوقاً » .

استمع الشاب فى سكينة و وقار، ولم يتغير ولم يضطرب ، ولما انتهى القاضى من كلامه ، قال محمد جعفر : « إن النفوس و الأرواح بيـد الله تعالى ، يحيي و يميت و إنك أيها القاضى لا تملك حياة ولا مماة ، ولا تدرى من السابق منا إلى منهل الموت .

فو الله ما أدرى و إنى لأوجل على أينا تغدو المنية أول

ثار الرجل غضباً وجن جنونه ، ولكنه قد أطلق آخر سهم من سهامه لا يملك غيره ، استبشر محمد جعفر حين صدر عليه الحكم فتهلل وجهه فرحاً ، كأنما تمثلت له الجنة و تمثلت له الحور و القصور ، و تمثل ببيت الشاعر :

هذا الذى كانت الأيام تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا

قضى الناس العجب مما رأوا ، ودنا إلى محمد جعفر ضابط انجليزى يقال له « بارسن » و قال له : لم أر كاليوم ، قد حكم

عليك بالإعـــدام و أنت مسرور مستبشر ، قال محمد جعفر : « و مالى لا أفرح ولا استبشر وقد رزقنى الله الشهادة فى سبيله و أنت يا مسكين لا تدرى حلاوتها » .

و حكم القاضى على رجلين آخرين بالإعدام ، أحدهما شيخ تلوح عليه سيما الصالحين و آية العابدين ، قد تلقى النبأ فى سرور وشكر ، وهو مولانا يحيى على الصـادق بورى أمير هذه الجماعة ، و الآخر شاب يظهر أنه من الأغنياء و التجار الكبار ، و أن أصله من بنجاب ، وهو الحـاج محمد شفيع ، وحكم على الثمانية الآخرين بالنفى المؤبد .

سمع الناس المجتمعون الحكم فى حزن و أسف شديد ، و فاضت العيون ، و سالت الدموع ، و اجتمع النـاس من رجال و نساء على جانبى الشارع إلى السجن ينظرون إلى هؤلاء المظلومين و يرثون لهم .

و وصلوا إلى السجن و نزعت ثيابهم و ألبسوا ثيـاب المجرمين ، و سجن كل واحد من الثلاثة فى حجرة ضيقة مظلمة لا يدخل فيها الهواء ، ولا ينفذ فيها النور ، و باتوا فيها فى حر

شديد ، بشر ليلة بات بها قوم ، و جاءت بكرة برقية تسمح لهم بالمبيت فى الميدان .

و بدأ زبانية السجن يصنعون لهؤلاء حبلا و عوداً للشنق على مرأى منهم و مسمع ، و هولاء يرون كل ذلك مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

أما مولانا يحيى على فهو من أشد الناس فرحاً كأنه من شوق الجنة فى الجنة ، و من انتظار النعيم فى النعيم ، ينشد الآبيات فى حنين و وجد ، و يتمثل بما قال سيدنا خبيب رضى الله عنه عند شنقه .

و لست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى
و ذلك فى ذات الاله و إن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع (١)

و كذلك رفقته ، وجوه ضاحكة مستبشرة ، و نفوس هادئة مطمئنة ، و قلوب راضية مسرورة ، خشوع فى الصلاة

---

(١) الشلو : العضو من أعضاء اللحم ، و الممزع : المقطع .

و عبادة فى نشاط ، و ذكر و تسبيح ، و تلاوة آيات ، و حنين و وجد و إنشاد أبيات .

مات القاضى الانجليزى — الذى حكم على هؤلاء الثلاثة بالإعدام — فجأة على إثر الحكم ، و جن الضابط الانجليزى « بارسن » الذى ألقى القبض على محمد جعفر ، و ضربه يوماً من الساعة الثامنة صباحاً إلى الساعة الثامنة مساءاً ، و مات فى جنونه شر ميتة ، فكان كما أنذر محمد جعفر ، و « رب أغبر أشعث لو أقسم على الله لأبره » (١) .

و كان يدخل إلى السجن كثير من الانجليز و الافرنجيات يتفرجون على هؤلاء السجناء يشمتون بمصير الأعداء ، و كانوا يقضون العجب من سرورهم و نشاطهم ، و يسألونهم لماذا لاتحزنون يا هؤلاء و أنتم على عتبة الموت و على موعد من الشنق ؟ فيجيبونهم : هذا لأجل الشهادة التى ليس فوقها نعمة و سعادة .

و يرجعون إلى الحكام الانجليز و يحدثونهم بما رأوا وبما

---

(١) حديث صحيح .

سمعوا ، فيزدادون غيظاً على غيظ ، و لكن ماذا يصنعون ؟ إنهم إذا أطلقوهم فقد أطلقوا أعداء قد ثاروا على الدولة ، و أنهم سيرجعون إلى ذلك ، و إذا شنقوهم و قتلوهم فقد بلغوهم أملهم و اجتهدوا فى سرورهم .

قد عز على الانجليز كل ذلك ولم تطب أنفسهم به .

فكروا فى القضية ، و فكروا ، و فكروا ، و وجدوا طريقا وسطا بين القتل و الإطلاق ، و الانجليز أمة قانونية ذكية .

فى يوم من الأيام جاء حاكم المدينة الانجليزى إلى السجن و تلا على الثلاثة المحكوم عليهم بالإعدام ، حكم محكمة الاستئناف .

« إنكم أيها الثوار تحبون الشنق و تعدونه شهادة فى سبيل الله ، ولا نريد أن نبلغكم أملكم ، و ندخل عليكم السرور ، و لذلك ننسخ حكم الإعدام و نحكم عليكم بالنفى المؤبد إلى جزائر سيلان » .

و وصلوا فى الثامن من ديسمبر سنة ١٨٦٥م إلى بورت بلير من جزائر اندمان و مات الشيخ يحي على هناك بعد عامين قضاهما فى عبادة و دين ، و دعوة الخلق إلى الله ، و كان ذلك

فى سنـــة ١٢٨٤هـ (٢٠/ من فبرائر سنة ١٨٦٨م) أما الشيخ محمد جعفر فقد صدر الحكم بالعفو عنـــه ، و إطلاقه فى الثانى و العشرين من يناير سنة ١٨٨٣م بعد ما لبث فى المنفى ثمانيـــة عشر عاماً .

و صدق الله العظيم :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهـــم من قضى نحبه و منهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (١) .





(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ ، و الحكاية مأخوذة باختصار من كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الايمان » طبع ، مؤسسة الرسالة و دار القلم و دار عرفات .

الفهـــــرس